البعث الاسيوي حتف الاستعمار

بقلم أديب مروة

يشهد العالم اليوم بأعين يقظة ، نمو البعث الاسيوي ، بسرعة متلاحقة ، تجعل من آسيا « ام القارات ، ومهد حضارات التاريخ » مرجلا يغلي بالثورة وشعوباً وعت نفسها ، فادركت حقيقتها الانسانية ونشدت أبسط حقوقها في الحرية والمساواة والاستقلال .

ولئن كانت الامم الاوروبية قد ازدهرت خلال القرون الثلاثة الماضية ، بفضل حضارتها الصناعية – بينما ظلت آسيا تعاني افقاراً حاداً ونقصاً بالغاً في اسباب المعيشة ووسائلها – فان يقظة المارد الاسيوي في هذا العصر خليقة في احداث تحول حاسم في ميزان القوى بين الشرق والغرب ، يحدو بهذا الى سرعة اللحاق بالآخر ، بينما يتردى الأخير في طريق الانحدار ويقف على عتبة التهلكة والانهيار ، بله الانتحار .

لقد اتيحت لبعض دول أوروبا أن تبقي آسيا زمناً مديداً في الحضيض ، راسخة في غلال من العبودية والاستعمار ، فمر الزمن علينا وخلفنا وراءه ، إلى أن افقنا على واقعنا ، ونفضنا عنا غبار الماضي ، ولحقنا بالعالم المتمدن ، فاذا بنا نجد ان صرح الاستعمار أوهى من ان يثبت امام رياح الشعوب الناهضة المتوثبة ، واضعف من ان تحميه قوى الشر بكل ما تملكه من جبروت وطغيان.

وهكذا بدأنا نشهد الآن نهاية عهد الاستعمار ، حيث استغل الغرب خلاله شعوب آسيا أيما استغلال ، ومزقها شر تمزيق ؛ ولكنه لم يستطع القضاء على روحها المتوثبة ، ولا على معاني الخير وحب الحرية في نفوسها . فكان عهد الاستعمار حقبة قصيرة في سيرة التاريخ ، وفترة مظلمة في حياة بعض الامم ، لاتعد شيئاً في عمر الزمن . ولم يلبث هذا الاستعمار الذي بلغ ذروته لمائة وخمسين سنة خلت ، ان اخذ في التقلص والانهيار . ويكاد ينحسر الآن عن البسيطة ، لولا اشتات هنا وهناك في اقطار قليلة . وهو سائر – لا مشاحة – نحو الزوال.

كل ذلك لأنه انبثقت في آسيا وغيرها من المناطق المنكوبة ، قوى جديدة مستمدة من حاجات الشعب وحقوقه في نشدان الحرية السياسية ، وتحسين حواله الاقتصادية ، وانتفاضه على الاجنبي الدخيل .

فكان لابد من الاصطدام والثورات ، والنزاعات المسلحة ، حيثما تعترض قوى الاستعمار ، سبل تقدم الشعوب ، وامانيها الوطنية الحقة ، وحركات التمرد والتخلص والتحرر ، هي نتيجة لحرية تعرقل ، وتجويع لا يسد .

انه لمن الطبيعي جداً ، أن تكون ثورة آسيا ، كفاحاً مشروعاً . تبذله شعوب عريقة واعية ، ضد سيطرة واستغلال دول الغرب المستعمرة ، وفي سبيل استعادة حرية مدوسة ، وحق سليب ، وعيش حر كريم .

لم يبق في العالم الآن اي مسوغ منطقي يبرر استقلال شعب قوي لشعب ضعيف ، ولا سيطرة دولة كبرى على موارد بلاد اخرى ، بحيث يحرم سكان هذه البلاد من الحرية والتقدم والتمتع بالاستقلال السياسي التام . وهذا واقع اقرته حقوق الانسان وشرعة الامم المتحدة ، ووضعته جميع مناهج الفلسفات المثالية والاشتراكية في طليعة أهدافها الرئيسية حيث لا سيد ولا مسود ، ولا غني ولا فقير ، بل مجتمع متعاون يعمل في سبيل خير المجموع .

ولقد مرت بنا نحن العرب تجارب مريرة عانينا خلالها الشدائد ، تحت ربقة الاستعمار العثماني ، ثم تحت جور الاستعمار الغربي ، ومع ذلك صمدنا لطعنات المستعمرين ، وقاومنا الضربة تلو الضربة ، ولم نسكت على ما ساموناإياه من غدر وخيانة واذلال ، منذ عهد الكبت الفكري والتجويع الاقتصادي ، والسلب المريع ، الى عهد نكث عهود الثورة العربية ، وسياسة التفرقة وفصم عرى الوحدة (اتفاق سايكس – بيكو) ووعد بلفور المجرم ، وزرع شوكة اسرائيل في قلب ارضنا ... واخيراً تلك الحملة المسلحة الغادرة على مصر ..

ان هذه الحملة الغاشمة التي لا تختلف عن غزوات المستعمرين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، جعلت كل عربي يؤمن ايماناً اكيداً راسخاً بان ما بيننا وبين الاستعمار الغربي ، ليس مجرد عداء فحسب ، بل تنازع بقاء ، الغلبة فيه للصامد صاحب الحق ، لا للظالم القوي . لأن عهد سيطرة القوي على الضعيف قد انقضى ، وأصبح في العالم الآن حكم عادل جبار ، اقوى من الجميع يساط سيفه فوق رأس كل معتد .. هذا الحكم هو ما يسمونه اليوم « الرأي العام العالمي » .

والرأي العام العالمي هذا هو غيره بالأمس ، حين كان يقتصر على جماهير الدول الحاكمة ، اما اليوم فهو يمثل جميع شعوب العالم التي عرفت قيمة الحرية والاستقلال ، وذاقت مرارة الاستعمار ، تراها تقف دوماً الى جانب الحق والعدالة ، الى جانب الحرية والمساواة ، الى جانب العقل والمنطق .

ولاشك في ان لتساند شعوب آسيا وافريقيا واتفاق كلمتها على مناهضة الاستعمار ، والعيش بسلام مع الجميع ، وهو ما انبثق عنه مؤتمر باندونغ التاريخي ، الفضل كل الفضل في عضد قضايا العالم العربي ، وكل قضية عادلة تنشب بين شعب مظلوم ودولة ظالمة ، وأخيراً في حمل الامم المتحدة على شجب اعتداء الغرب على مصر .

أجل هذا هو العامل الوحيد الذي قضى بانتصار مصر في دفاعها عن حقوقها وفي اندحار قوى الاستعمار في محاولتها استلاب حقوق الغير .

لقد لقن العرب بعد أمثولة مصر درساً لن ينسوه ولن يسكتوا على تكرره في المستقبل ، وهو درس كان قاسياً دفعت مصر ثمنه غالياً من شبابها ودماء ابنائها ، لكي تعلمنا فداحة ما يبيته لنا الاستعمار الغربي .

اجل لن نسكت بعد اليوم على دوس حقوقنا ولا على اعاقة تقدمنا ، ولا على منعنا من استعادة مواردنا ، او التمتع بحريتنا واستقلالنا ، ورائدنا الابتعاد عن منازعات المعسكرات ، وتضارب مصالح الكبار ، واستغلال تنافس فريق ضد فريق .

بهذه الروح – روح باندونغ نفسها – لن نشذ عن القافلة . قافلة الشعوب السائرة الى الامام ، وقد مسها الوعي الانساني بقضيبه الساحر ، وافاقت على قيمها الصحيحة ، وحقوقها العادلة في ان تحيا حياة كريمة عزيزة الجانب موفورة الاحترام لدى الجميع . بهذه الروح الانسانية المسالمة – لا المستسلمة – المنبثقة عن بعث الشعوب الاسيوية ، نستطيع القضاء على كل محاولة استعمارية نيل منا والاعتداء علينا . وتجعلنا نقف بالمرصاد لكل مستعمر مستغل ، مواصلين السعي لاستكمال تحررنا واستقلالنا ، مستوحين خططنا من واقعنا الشرقي ، ومن حاجات شعوبنا وحدها ، ومن اساليب عيشنا ومحيطنا ، وتراثنا الفكري ، وبذلك نكون حتفاً لكل مستعمر دخيل . وصدراً رحباً لكل صديق حليف .

أديب مروة